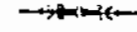


حول لقب «السفاح» أيضاً

للأستاذ عبد الحميد العبادي



وأخيراً يدلي الأستاذ عبد المتعال الصميدى بدوره في الدلاء ويتبرى للبحث عن لقب «السفاح» لمن هو على التحقيق . وقد كتب الأستاذ في هذا الموضوع ثلاث مقالات نشرت في الأعداد ٣٤٦ و ٣٤٧ و ٣٤٩ من «الرسالة» الثراء . ونحن لا شأن لنا بالمقالة الأولى من هذه المقالات ، لأن الأستاذ ذهب بدليل فيها على أننا مسبوقون إلى تفسير لفظ «السفاح» بالمعطاء للعال، وقائه وهو يكتب تلك المقالة أننا قد زلنا عن هذه الدعوى عند ما ثبت عندنا أن الذين لقبوا بالإمام أبا العباس بذلك اللقب لم يقصدوا إلى مدحه بل إلى ذمه ووصفه بأنه سفاح قتال . أما مقالاته الثانية والثالثة فهما اللتان نعتي بمناقشتهم اليوم . وقد حاول الأستاذ في المقال الثاني أن يفتد قولنا إن أبا العباس لم يكن سفاحاً ، كما حاول في المقال الثالث أن يبين لنا كيف اختلفت الروايات في لقب السفاح بين أبي العباس وعمه عبد الله بن علي

ولقد كبر على الأستاذ الصميدى أن يقول : « إنا رجسنا إلى سيرة أبا العباس قبل الخلافة وبعدها فلم نجد فيها ما يسوغ تلقيبه بالسفاح » فاندفع يرمينا بالغفلة الظاهرة والتجنى على التاريخ ويزعم أن سيرة أبا العباس بعد الخلافة « طائفة » بسفك الدماء ولقد ظننت الأستاذ سيأتي في الأمر بجديد فإذا به يمزو إلى أبي العباس ثلاثة حوادث : أولها قتله ابن هبيرة غدرآ ، وهذا قد نبهت أنا عليه في أول مقال نشرته لي الثقافة في هذا الموضوع . وثانيها قتله أبا سلمة الخلال ، ولم أعد أنا أبا العباس مسؤولاً عن هذا الحادث شخصياً ، فالباعث عليه من قبيل ما نسميه الآن تهمة الحياة المعظمى ، ولذلك لم أعتد به على أبي العباس . على أن هذا الحادث قد تولى كبره أبو مسلم الخراساني من غير صراء . الحادث الثالث قتل أبي العباس سليمان بن هشام بن عبد الملك بعد أن آمنه ،

ولو تتبع الأستاذ قصة هذا الأمير في أقدم مظاهرها وأصحها وهو تاريخ ابن جرير الطبري لعلم أن الطبري يتتبع أخبار سليمان هذا بكثير من العناية والإسهاب حتى سنة ١٢٩ ثم لا يعود إلى ذكره بعد ذلك للتاريخ ، وسياق حديث الطبري يفيد أن هذا الأمير قتل في وقعة مرو الشاذان التي كانت سنة ١٢٩ بين جيش ابن معاوية الثائري فارس وبين جيش ابن هبيرة أمير المراق ، وإذاً يكون سليمان ابن هشام قد فارق هذه الحياة قبل قتله المزعوم على يد أبي العباس - بنحو أربع سنوات على أقل تقدير . وإذاً لا يمكن أن ينسب من هذه الحوادث إلى أبي العباس إلا حادث واحد فقط هو مقتل ابن هبيرة ، وحتى هذا لا يقدم عند تدقيق النظر توجيهاً وتأويلاً . فقد كان ابن هبيرة زعيماً عربياً قوياً ، وكان له حزب عربى عظيم في مدينة واسط ، وكان أبو العباس يعتقد أنه يرقب الأمور ، ويتربص الحواريين ويثب وثبة ترد عليه ما ضاع منه ، فرأى أن يعاجله قبل استفحال شأنه

ولما لم يجد الأستاذ الصميدى من حوادث القتل ما يصح أن ينسبه إلى أبي العباس رأساً أخذ ينحله جرائم غيره ، فزعم أنه هو الذى قتل تسمين من بنى أمية كانوا على مائدته بتجريض سديف للشاعر ، مع أن هذا الحادث للفظيح إنما كان بفلسطين وهو المعبر عنه في تاريخ الطبري بيوم أبي فطرس ، والمسئول عنه هو من غير نزاع عبد الله بن علي وحده . بل إن الأستاذ الصميدى ليجهل أبا العباس مسؤولاً عن قتل عبد الله بن علي بالشام وداود بن علي بالحجاز وسليمان بن علي في البصرة ، لأنه هو الذى « سلطهم » على بنى أمية في البلدان المذكورة . وهذه قصة الذئب مع الخروف معادة بشكل آخر . ولست أدري على أى مسددر يعتمد الأستاذ في دعواه هذا « التسليط » فالمصادر لا تذكر إلا لفظ « التولية » على تلك البلدان . والتولية ليس معناها « التسليط » بطبيعة الحال . ثم أين عدالة الإسلام وأدب القرآن الذى يقول « كل نفس بما كسبت رهينة » ولا ترز وازرة وزر أخرى ؟ وأين مبدأ شخصية الجريمة وشخصية العقوبة وهو من الإصلاحات العظيمة التى جاء بها الإسلام ، وكانوا في الجاهلية ربما أخذوا القبيلة كلها بجريمة فرد واحد منها ؟ الحق أن أبا العباس كما بينت في مقالاتي

السابقة كان مغلوباً على أسره لأبي مسلم بالشرق ولعمه عبد الله ابن علي بالشام ، ولو رجع الأستاذ الصميدى إلى تاريخ الطبرى وقرأ فيه سيرة أبي العباس لتبين له ذلك بأجلى بيان ، فلمله فاعل إن شاء الله

ولقد بلغ من حرص الأستاذ الصميدى على اتهام أبي العباس أن وقع في تناقض عجيب حقاً . فقد كتب في مقاله الثانى يقول : « ولقد كان له (أى لأبي العباس) سفاح آخر نسيه المؤرخون ، ولم يكن بأقل من عبد الله بن علي سفكاً للدماء . ذلك هو سليمان بن علي أخو عبد الله وعم أبي العباس ، فقد ولاه البصرة وسلطه على من كان بها من بني أمية ، فقتل من كان بها منهم وأقام في الطريق فأكلهم الكلاب » . وبعد أسطر قليلة يقول الأستاذ الذى يرمينا بالغفلة : « ويطول بنا الكلام لو ذهبنا نستقصى ما سفك أبو العباس وأعماله وإخوته (مع العلم بأن التاريخ لا يعرف لأبي العباس إخوة سفاكين يسأل عن جرائمهم) من الدماء . ولقد كانوا كلهم شركاء فيما عدا سليمان بن علي فإنه كان أحسنهم على بني أمية وكان يكره سفك دماهم ، ويجير كل من استجار منهم إلخ » والظاهر أن الأستاذ أحس هذا التناقض المجيب وأراد أن يثلافاه فكان تلافيه له أعجب وأعرب ، إذ عقب على الفقرة الأخيرة بقوله في هامش المقال الثانى : « هكذا روى عنه صاحب المقد وهو يناق ما ذكرناه من قتله من كان في بني أمية بالبصرة ... فلمل هذه الشفقة أدركته أخيراً عليهم » . ولولا أن الأستاذ الصميدى جاد فيما يقول لقلنا إنه تعمد أن يورد في هذا البحث الدامى فصلاً مضحكاً يرفه به عن القراء

والواقع أنه لا أبو العباس ولا عمه سليمان بن علي يمكن أن يوصفاً بأنهما سفاحان سفاكان ، وذلك لسبب واضح هو أنه لم يكن في العراق في وقتها أمويون يمكن أن يبسطا إليهم يد القتل والمثلة . فمن يتعمق درس التاريخ الأموى يعلم أن العراق لم يكن في وقت من الأوقات موطناً لبني أمية وبخاصة في أخريات عهدهم عند ما انتشرت عليهم فيه البشوق التى زعزعت ملكهم ، وكادت تأتى على سلطانهم قبل زحف العباسيين من الشرق .

إنما كان موطن بني أمية وعمل عصبينهم للشام ثم الحجاز . فإذا سكنت المصادر للتاريخية للقدمة عن أن تنسب إلى أبي العباس قتل بني أمية أو قال صاحب المقعد إن سليمان بن علي كان شديد الحنو على من يلجأ إليه من بني أمية ، كان هذا السكوت وذلك للقول هو المقول والمنفق وحقيقة الحال . وإذا اقتصر الطبرى على ذكر من قتل الأمويين إنه إنما كان في الشام والحجاز كان ذلك منطبقاً على الحقيقة والواقع

مما تقدم يرى للقارى أن الأستاذ الصميدى على عنف محاولته « إدانة » أبي العباس وتسويغ تلقيبه بالسفاح لم يكن موفقاً ، بل هو لم يخرج في واقع الأمر قيد شعرة عن مضمون قولنا : « إن سيرة أبي العباس قبل الخلافة وبمدها لا تسوغ تلقيبه بالسفاح بحال من الأحوال »

ولنتقل الآن إلى مناقشة موقف الأستاذ الصميدى من المصادر واختلافها في لقب السفاح بين أبي العباس وعمه عبد الله بن علي . وهو موقف عجيب حقاً ، فالأستاذ الصميدى ينظر إلى المؤرخين والأدباء الذين تعرضوا لسيرة أبي العباس وأخباره نظرة واحدة ، ويضمهم في مرتبة واحدة من حيث العدالة والضيبط والحجية ، لا فرق عنده بين متقدم ومتأخر ، وبين متخصص في الرواية التاريخية وغير متخصص فيها ، وبين من يتبع الرواية بإسنادها إلى من شهد الواقعة ومن يتسقط الأخبار من هنا وهنا . وما هكذا كان للسلف الصالح من علماء المسلمين . فإنهم كانوا يزنون الرجال والأخبار بأدق موازين للنقد ؛ وما علم الحديث متأخراً ، فقد رجحوا كتاب البخارى على غيره من كتب الحديث ، لأنه أقل من غيره رجالاً تكلم فيهم بالضعف ، وأقل من غيره أحاديث شاذة أو معلولة . فإذا جئنا إلى التاريخ ، وجدناهم يقولون : إن أصح التواريخ تاريخ ابن جرير ، وإن كتاب « فتوح البلدان » للبلاذرى لم يؤلف مثله في موضوعه ، وإن طبقات ابن سعد أقدم وأعظم كتاب في السيرة وتاريخ الصحابة والتابعين . وقالوا في ابن قتيبة إنه قليل الرواية

من وصي الفوضى

الدكتور مبارك يناظر

للأستاذ شكرى فيصل



منذ أيام وقف الدكتور « زكى مبارك » يناظر الأستاذ « لطفي جمعة » في موضوع : « يزدهر الأدب في عصور الفوضى الاجتماعية ». وكان طبيعياً أن يؤيد الدكتور المبارك هذه الفكرة وأن ينتصر لها ، ويدافع عنها ؛ ويجرد حملته على خصومها ، ويسوق عليهم القوى والهجمات من منطق العقل ومنطق المواقف وقد ود الناس لو سمعوا الدكتور خطيباً يرتجل حججه وسط هذا الجحش المضطرب ، ويتزعج آراءه من قلب هذا التيار العاصف ، ويمتدح سامعيه بلفتاته الذهنية الباهرة . ولكن الدكتور زهد — كما يقول — في البراعة الخطابية ، فانصرف عنها ، وأوى إلى قلمه في ساعة من ساعات الفوضى والاضطراب فكتب خطابه في دائرة محدودة وصفحات معدودة ونهيج بين

وكان هذا في الواقع صدمة شديدة الأثر ... تناثرت معها آماني وأحلام . فالتاس يعجبهم من هذه المناظرات أنها متعة من متع الفكر ، يستفيق فيها الحس ؛ ويتفتح معها الدهن وتضطرم فيها الحياة ، وتنبثق في خلالها المعاني والخطرات كما ينبثق الماء للثر فإذا هم — هذه المرة — في نطاق من الفكر ، وفي مدى من الجدل ، وفي مجال ضيق قد رخت فيه الخطوط ، وعينت الاتجاهات وصدرت عن أصل مكتوب

واثن فأت الناس أن ينعموا ببراعة الدكتور الخطابية التي زهد فيها ، فقد عوضهم أن يروا نظارته الزدوجة (المتفلسفة) من فوق عينيه^(١)

وأنا أشهد يا سيدي الدكتور أنك استطلعت أن تأمر الناس ، وأن تأخذهم بالإعجاب بك ، والتصفيق لك ، والانسياق معك

(١) الدكتور يدعي أن لكل فيلسوف نظارتين . وأن له مثلها ١ .

ولقد أدى هذا الموقف الأستاذ السعيدى إلى نتيجة هي حجب من العجب ، فالمصادر التي لقيت أبا العباس بالسفاح صادقة لأن ، أبا العباس عنده سفاح ، والمصادر التي لقيت عبد الله بن علي بنفس اللقب صادقة لأنه كان سفاحاً . والمصادر التي سكنت عن تلقيب هذا أو ذاك باللقب المذكور لا يصح الطعن بها في رواية المصادر التي ذكرت هذا اللقب « لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ » وهي قاعدة مشهورة عند الأزهريين ويقول الأستاذ إنه لا يمكن أن أجادل فيها . وأنا لا أجادل في القاعدة ولكن أجادل في تطبيقها فليس هذا محل تطبيقها ، والمسألة ليست مسألة حفظ وتضييع ، وإنما هي مسألة تخليط وعدم تخليط ، فهل يسلم الأستاذ يقول من يقول « إن من خلط حجة على من لم يخلط » ؟

أما نحن فننظرنا إلى المصادر نظرة نقد وتقدير كما فعل الأقدمون من علماء الحديث ؛ فوجدنا أن أقدمها وأوثقها وأشدّها تخصصاً بالرواية التاريخية لا تلقب أبا العباس بالسفاح ، وتصور هذا الخليفة في الصورة التي أجعلناها غير مرّة ، ووجدنا المصادر التي شوهت صورة هذا الخليفة ولقبتة بالسفاح ونسبت إليه الفظائع هي من وضع رجال ليسوا متخصصين في الرواية التاريخية الجدية ولا معروفين بالمعالة والضبط اللذين يعرف بهما أصحاب الرواية التاريخية القديمة كابن سدد والبلاذري والطبري وغيرهم . هذا هو موقفنا بإزاء المصادر القديمة من حيث موضوع « السفاح »

وبعد فلئن كنت حزنت لشيء وأنا أقرأ المقال الثالث والأخير للأستاذ السعيدى فلقد حزنت للعبارة التي علق بها على جملة لابن العبري المؤرخ المسيحي المتدين الزاهد . فقد قال ابن العبري : « وكان أبو العباس رجلاً طويلاً أبيض اللون حسن الوجه يكره الدماء ويحاي على أهل البيت » فعلى الأستاذ السعيدى على ذلك بقوله : « إن هذا لا يراد منه إلا كراهته لدماء أهل البيت وحدهم » مع أن المؤرخ هو يترجم لابن العباس لم يسند إليه حادثة قتل واحدة ، ومع أن في تاريخه السرياني المطول والمترجم إلى الإنجليزية لا يلقبه بالسفاح مطلقاً .

عبد الحميد العبادي